قراءة في تجربة الفنان حسين عبيد

من وضعية المتلقي إلى مغامرة الفنان

رحلة الفنان حسين العبيد مع الرسم رحلة بحث عن الحقيقة تشق طريقها عبر العلامات المجردة والرموز اللازمانية والخطوط والحروف والنصوص، بعد أن اتسمت لفترة طويلة بالواقعية. وهي رحلة تجمع عمليتين مترابطتين بالضرورة الأولى هي عملية تلقي الفنان لما يوجد على الجدار، كلوحة عملاقة وما تثيره في نفس الفنان من تتبعات ليبدع من خلالها أثره الفني كمرحلة ثانية، حيث تمتّد تلويناته وخربشاته مطلقة مختلفة متكررة تتوثب إلى التعالي والسمو حبا لحقيقة شريدة.

دلال صماري
باحثة وتشكيلية تونسية

تخوم الذاكرة تعلة للوصول إلى أقاصي التجريد

خطوط متقاطعة أسهم وحروف وكلام محفور ومنقوش يدعو طلاسم ذاكرة المدينة والجدار إلى تمثلات جديدة بمقاييس ومعايير مختلفة. تشكيلات تجمع بين الذات والكيان فتفضي إلى مساحات مسكونة بقوّة المكان.

تميّزت أعمال الفنان حسين العبيد في مرحلة ما بعد تلقي لوحات الجدران، على سطح محامله أو جدرانه الافتراضية باحتواء المساحات الفارغة والألوان الترابية حينا والأولية حينا أخر. والعلامات والرموز التي تأتي متواترة الحضور في نسق زخرفي لافت متجاور. وكأنه هنا يكتب بلغة خاصة لا يفقه معناها إلا كاتبها. يستقيها من كل ما يوجد حوله من إرث وخاصة جدران المدن والأزقة. من تلك الجدران يجني الفنان حركية الخط المبهم الذي لا تبقى منه غير الرواسب وتلك الرواسب ترقص بين انحناء وتعريج واستدارة. كما الصحراء ممتدة في أعماله بعمقها تمتد السماء والمحيطات بشساعتها والشمس بحرقتها، أعماله كأنها ترمز للقوى الحية الطبيعية الأرض والماء والنار والهواء. قوى توقض بغرابة تواجدها على المحمل حيوية الإرادة والرغبات الباطنية وفي الأثناء يحسّ المتلقي بذلك ولا يدري. حيث يقول الفنان في هذا الإطار «أرسمها من نقطة الميلاد ومنازل الطفولة وروائح الصور والأزقة وجدرانها التي تشكّل على مستوى الذاكرة نقاطا مشعة بالجمال...أحاول منذ أكثر من خمسة

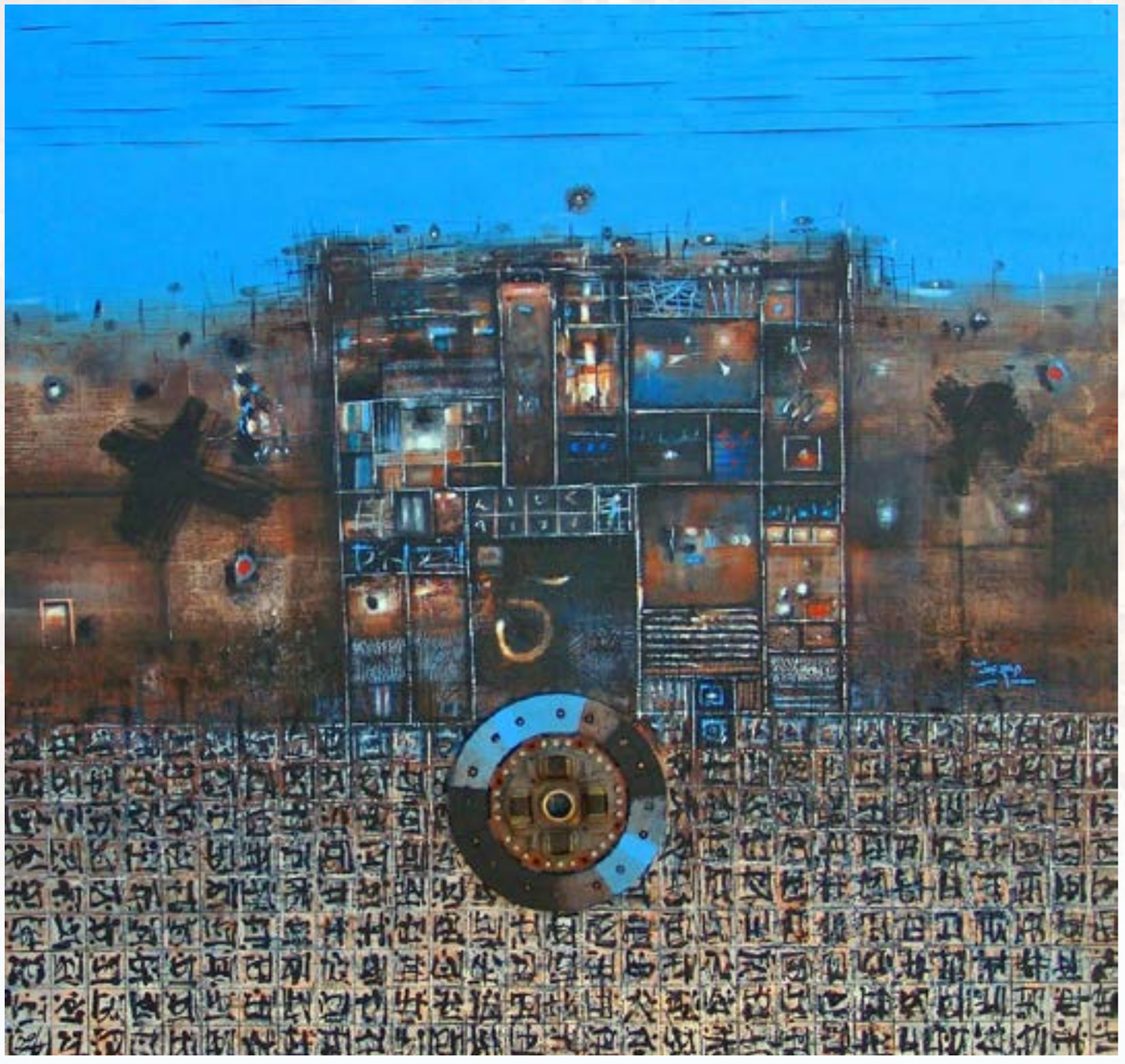

عشر عاما طرح موضوعات متصلّة بها والجدار الذي وجدت فيه مساحة للبوح المجاوز للوصف، لا أعرف المصير النهائي لمحمولاتها لكني أجتهد في تقديم خلاصات توصلني إلى النبض الداخلي للمشاهدات المسكونة باللون البني الجبلي والأزرق البحري، ومن خلالهما أوجدت خيوطا نصّية مفتوحة، وكتابات غير مقروّة تبحث في كل تجربة عن حقائق تجاوز الواقع بفيوض وإشارات مجرّدة تجتهد في تقديم معنى الأثر الفني.»

ومهما كانت مقاربته للفن الغرافيتي والرسم معا فان له أسلوبه المخصوص وبصماته المتفردة في الاستفادة من هذا لتطعيم ذاك، حيث تتجلى جماليات اليومي التشكيلية وإمكاناته التعبيرية وتأثيراته الحسيّة وترقيماته اللونية أكثر على سطح لوحاته فهي احتفاء وانتشاء لممارسة كيمياء الجمال بأسلوبه وتقنياته الخاصة. حيث يبدأ كل فنان عادة تجربته بالتعرف على التقنيات الموروثة في الرسم والتمكّن منها ولكن شيئا فشيئا بحكم التجربة والمحاولة والمران يستطيع الفنان الباحث أن يكتشف طريقه، تقنياته وأسلوبه. حيث يقول الفنان في حوار لي معه حول ضرورة أن تكون للفنان تقنية معينة تخصه من عدمها «أعتقد أن هذه المسألة تعتمد على الثقافة الفردية، لكني مع ضرورة إيجاد بلاغة تشبه الذات الفنية، بحيث تكون هناك نوعا من الإنفرادية عند فتح مساحات نصّية أوسع، قد تلتقي مع الأخر على بعض الجزئيات البصرية لكنها لا يفترض

أن تتشابه كليا في اشتغالاتها.» فللفنان هنا مرحلية خاصة لبناء الأثر تبدأ بتثبيت عجائنه على المحمل من ثمة بناء التركيبة التي يعمل جاهدا على توازنها بين ملء وفراغ بخربشات ورسوم تستحضرها الذاكرة النشيطة للفنان. من ثمة يمرر ألوانه باختيارات دقيقة تتباين من خلالها شفافية اللون ودرجاته. ولعلّ أهم ما يميز أعمال الفنان هو قدرتها على إحتواء المساحات الفارغة والألوان كما المساحات المؤثثة والبياضات.

لم يكن وعي الفنان بالمكان اعتباطيا بل كان شعوره به هاجس يسكنه ويؤثث ذاكرته ليسكن العقل الفني لديه، وما ينتجه من إبداع هو مطلق غير مقيد بتقليد أو موضوع بعينه أو إعادة استحضار، وإنما هو وليد خياله والخيال لا يأتي من فراغ بل هو تصور جديد لشيء قديم وهو ما يعكس جدلية الفضاء والزمن. خيار الفنان الجمالي هو خيار تجريدي للامساك بكنه الجمالية اليومية المكتسبة والتفاعل مع المحدثات الفنية الحاضرة في العالم فهي إذا تجمع بين المترسخ في الذات والمنتشر في الثقافات الفنية الراهنة.

الأثر الفني لدى حسين عبيد ينبني على مبدأ التجريد الذي يرتكز على خلفية فكرية تقوم على التعبير المطلق ويتعالى على التمثل التقريري لتسجيل الأمكنة والأحداث والأشياء وإنما يتجاوز مظاهرها الخارجية المرئية بحثا عن باطنها وجوهرها اللامكاني واللازماني، حيث مكّنه هذا الاختيار الجمالي من إنتاج فضاءات متفردة وكيانات مرسومة بين الألوان والنتوءات. تنتهي إلى التعبير بشكل حسّي عن الرؤى الداخلية والخارجية بإقتراحات جديدة عن ما هو مألوف للمشاهد عادة. حيث يقول في إجابة عن سؤالي حول ما إذا كان يجب على الفنان أن يعالج موضوعا بعينه أو العكس» هناك العديد من الفنانين يسعون نحو معالجة موضوعات متكررة أو متشابهة في صيغها بحجة أنها تمثل الذاتية الأحادية، ربما كانوا في

اجتهادهم على صواب لكني أشعر أنهم يقزمون رؤية المتلقي بتكرارهم للمشاهد ويجعلونه بقف أمام لوحة واحدة وبنفس المفردات والأشكال، لهذا لست ممن يكررون الصيغ أو الموضوعات، أبحث دائما عن نصوص تمدني بالجديد الذي كما أراه في الواقع أو اللاواقع.»

حيث بحث الفنان من خلال أعماله في العديد من المسائل التشكيلية الهامة كالتوازن والحركة والتناسق والإيقاع، فحرّك ما استلهمه من حيّزه المجتمعي لتأثيث الفضاء التشكيلي لديه بإعطائه حضورا جديدا، من خلال الاهتمام أكثر بهندسة المساحة وما يطرأ عليها من تغيرات في سمك العلامات وحجمها وتوجيهها ووضوحها وألوانها ونتؤاتها، كما انسجام الشكل والخلفية باستغلال التحكم في الفضاء التشكيلي عبر لعبة متناهية من التخطيطات والألوان المتضادة والمتقابلة لتوليد نتائج بصرية مثيرة في كل مرة.

فالضوء يوجد بين الأشكال والخلفية لتجسيم التدرجات، ألوان مضيئة وساطعة حينا وداكنة حينا أخر، خط رقيق منكسر وأخر دائري متواصل، هي آثار خطيّة ولونيّة تختبر رحابة المحمل أثار الفرشاة والأدوات، عالم صاخب من الألوان واللمسات حيث الشكل يلتحم باللون ولا ينفي كل هذا عن الأثر صفة الهدوء والاختزال، انه مساحة لتآلف المتناقضات.

هناك تماهٍ عجيب بين الكتل الضوئية والكتل اللونية وهو ما يعكس البعد الابداعي المتجدد لدى الفنان الذي استطاع التعامل مع اللون، الشكل، الخامة، المساحة، التركيبة بحركية ليس فيها بعدا عبثيا بقدر ما تشمل تركيزا ثم حركة فضراغ ثم ملئ، إضاءة فأقل حدّة، اهتم حسين عبيد كثيرا بالتفاصيل فكان بحثه عن الجمال حثيثا بين الشكل واللون والضوء.

هو بحث عن الانعتاق من الوعي المؤطر للعمل الفني إلى الوعي المؤطر به، فالوعي المؤطر هو اللوحة أثناء بناء أركانها. بينما الوعي المؤطر بها هو المتسرب عن حيوية المادة وحيوية الحركة المادة التي لا تلبث تغازل وتسحر العين بتمثلات جديدة في كل مرة. فتصبح اللوحة وسيطا رمزيا وأداة تصلنا بالعالم والآخرين وتكون بمثابة رؤية من خلالها ندرك الأشياء وداخل هذه الرؤية ينتظم العالم، وتكتسب معنى ليختزل المسافات ويضع حدا لعزلة الفنان وتخلق حوارا بينه وبين المتقبل بماهي ليست محض آلية أو وسيلة وإنما هي نمط تمثّل ورؤية للعالم وهي موقف وأسلوب تواصلي رمزي.

تواصل عبر حسن النظم وسبك العلامات وتصفيف العناصر الجمالية للوحة من لون وشكل وفراغ...تواتر تقديم وتأخير تلاعب بالمكونات، وإعادة إخراج لها بما يخدم المعنى ويقوي الدلالة حيث يعتمد أسلوب التعدد والاسترسال في النسج ويسمى الترادف، وهو خلق إيقاعات متوالية من العلامات المفردة أو المركبة بما يمتن اللحمة التركيبية للمنجز الفني، بمثابة هندسة للفضاء ونحت لجسد المادة فينهض الإيقاع المتواتر والمختلف بوظيفة الدلالة، كما الفراغ القائم على إفراغ بعض المساحات التي تزيد حضور المنجز إجلالا وتوازنا. بمعنى حسن التقسيم حيث يدل المنجز الفني لدى الفنان على حسن التصرف في مساحة اللوحة وخلق تناغم بين وحدات إيقاعية صغرى وأخرى كبرى، حيث صارت الظاهرة الإيقاعية مركزية في أعماله لارتباطها بخدمة المعاني الجمالية وخلق

المتعة الفنية للجمهور، بماهي أنماط تشكيل مجازي تخيلي لإخراج المعنى على غير صورته الحقيقية الموضوعية مع أنها سليلتها وهذا ما يعمق دلالتها ويزيد من شحن طرائق التعبير وأساليبه.

فلطرق إبلاغ المعنى الجمالي أنهج متعددة ومتفرعة، يؤديها منشئ الخطاب البصري عبر أساليب متعددة لعلّ أهمها الاختزال. حيث يوظّفه لتوجيه خطاب قائم على المعنى بما أن ثراء المادة البصرية الموجودة على الجدار كلوحة عملاقة إحتضنت لحظات فعل تلقائية وحرة يوّسع عالم اللوحة لديه وتنوّعها ومنحها مساحات تشكيلية أشسع لممارسة فن إختزالي خاص به ليذهب من خلاله إلى أقاصي التجريد والمعنى. حيث تخلق اللوحة حالة تواشج طريفة بين مختلف مكوناتها رغم تضادها في كثير من الأحيان وكأنه الطباق الذي يخرج طرفي النقيض من التضاد إلى التسوية فتصير أطرافه معبرة عن معنى مشترك.